

قيارة الوارثي

بقلم عبد الجبار داود البصري

- ١ -

من الانتصارات الرائعة التي حققها النقد اكتشافه المدارس الادبية ، واستطاعته تصنيف الادباء ، وتبويب انتاجهم ، وايقاظ الوعي في ضمير الاديب .

فلولا النقد الادبي لم نسمع بمصطلحات الرومانتيكية والرمزية والواقعية الجديدة وغيرها ، ولولا النقد - الذي يدرك رسالته - لظل الادب - او الشعر كما يسميه تشارلتن - بضاعة ترف ، ولعاش الشاعر اداة من ادوات القصر .

وادرك الناقد العربي رسالته فكانت محاولات جادة لاكتشاف وخلق مدارس في الشعر العربي . ومن اهم المحاولات التي خفقت ارائنها تقريبا بحث الدكتور طه حسين عن مدارس الشعر الجاهلي كما حاول الدكتور شوقي ضيف تقسيم الشعر العربي الى مدرسة الصنعة والتصنيع والتصنع ولعله ارهق نفسه .

وكما بحثوا عن مدارس فنية في بطون الزمن حاولوا اكتشاف الملامح المدرسية في الادب العربي الحديث واختلفوا في التسمية . ففريق يسميها اتجاهات ، وفريق يسميها تيارات، وليتهم اقتبسوا لفظة الطبقات المتداولة في كتب النقد القديم فهي اكثر تلاؤما وتمشيا مع الروح العلمية الحديثة . اما عن التاريخ الادبي في وادي الرافدين فلم يتعب الناقد اعصابه واكتفى بتقسيمه الى ادب ما قبل اعلان الدستور العثماني وما بعده وراوا ميزات ما قبل الجمود وميزات ما بعد التجديد .

وبين فترة وفترة نلتقى - على صفحات المجلات الادبية - بنقاد يريدون ان يحاكموا شعرنا العراقي الحديث - قيارة الوادي - امام قوتين غربية وان يقسوه بمقاييس لا تتناسب وطبيعته .

والذي رأته بعد ان قررت البحث عن مفاهيم جديدة في الشعر العراقي الحديث انه ينقسم الى مستويات طبقية او مدارس ثلاث تتداخل فيما بينها قليلا وتتشابك جذورها واغصانها ولكن السمات السائدة مختلفة وواضحة في الوقت نفسه .

- ٢ -

والجالات الدراسية كالمنازل لا تدخل الا من ابوابها . والتهريج هو الباب الذي يقودنا الى دهاليز وممرات المدرسة الشعرية التي عاشت قبل الحرب العالمية الاولى وفي القرن التاسع عشر .

ونعني بالتهريج كثرة العواطف والاحاسيس الكاذبة ، وكثرة الصور الصارخة الهائلة الخرافية ، وكثرة الافكار المبالغ فيها ، وادعاءات عريضة في مجالات الفن والحياة ترافقها موسيقى صاخبة مجلجلة بلا ضرورة . فمن مظاهر التهريج في الحب قطعة للحبوبي فيما يلي وهو مشهور بغزله الذي قدمه في بدايات تهايه ومدانحه وفيها نجد الموسيقى

الصاخبة في رقصاتها حتى كأننا حيال جوفه زنجية بمجرد الاسراع في القراءة وتنتهي بقافية عنيفة جدا تذكرنا بهبوب الرياح العواصف . واجد فيها من الخيال البعيد المضحك الكثير ، والصور الكاذبة . فالدر الفلك الخالد المنير الحجري يستحي ويندهش من رؤية محبوبة الشاعر . وهو لا يكتفي بدهشته بل يرشح العرق من جبهته .

ويتماذى الشاعر فيفسر الظواهر الطبيعية تفسيراً ظرفياً كأنما القوانين العلمية كالالفاظ يحتطبها من هنا وهناك فيذكر ان هطول الندى ما هو الا سيل عرق البدر المستحي من حبيته ولولاها لم يتكون الندى . ومن الغريب ان يسمي غيره بالافاك لانه يوازي بين الشمس ووجه الحبيبة . والحق ان الشاعر افاك كبير اذ يفضل وجهها على الشمس .

مزقت ثوب الدجى في نقرها ثم حاكنه له من شعرها وانجلت سافرة عن نحرها ما راها البدر الا واستحى

واعترته دهشة المندهش

او ما تبصره لما اميط برقع الحساء امسى يستشيط
خجلا بات فنا الظل السقيط عرق من وجهه قد رشحا

فهي لولاها الربى لم ترشش

قتل الافك ليسا بسواء وجهها الذكي التجلي وذكاء
تصبح الشمس ويخفيها المساء وهو يمسي مثلما . قد اصبحا

بأهرا اشراقه للمعشئ

وبدا التهريج في فخرهم ايضا فعيد الفغار الاخرس الذي تملق القاصي والداني ، ومدح الحفر والامير من نخيل البصرة الى جبال الشمال ومن حدود ايران الى رمال نجد وقال في سبيل اشباع مطامعه لاحدهم : « اجز لي بلثم يمنك » يدعي حينما يفخر ان المطامع لم تذله .

وعيد الفغار الاخرس الذي تفزل بالفلمان غزلا مفضوحا معيبا يقول حينما يفخر انه لم يكن به خصلة مخلة بالشرف ولم يدن من اشياء تشينه بل انه سبق غيره في مضمار الفغار .

وعيد الفغار الاخرس الذي قال لاحدهم : تجود على محبك كل عام بلبس عباءة وتقر عيني . ويقول حينما يفخر ان الاباء منهبه والجهال هم المرغسون عنه .

ليس هذا هو التهريج !!

وما ملكت مني المطامع مقودا لصاحبها في موقف الضيم اذلال
ولم ادن من اشياء مما تشينني ولو قطعت مني لذلك اوصال
وما كان بي والحمدلله . . خلة لها بالشريف الباذخ المجد اخلال

ولست ابالي والابوة مذهبي اذا عرضت عني مع العلم جهال هم سابقوني بالفخار وقصروا وهم طاولوني بالاباء فما طالوا الخ

وهرجوا في الوصف ، فمن قطعة لعبد الباقي العمري الفاروقي يصف الطبيعة العراقية الضاحكة فيأخذ بالصياح والعراك : لا تسلم عما جرى نهر الفرات وسلن دجلة ..

ويفسر الظواهر الطبيعية كزيميله الحبوبى كما يحلو له فكان علم الجغرافية وجد عبثا وان الشاعر حر في التمرد عليه ، وعدم الايمان بنتائجه فيفسر امواه الرافدين بانها دموع ..

ثم ياتي بصور جامدة جدا وهي ان للانهار طررا تمسحتها كف النسيم واذا نحن لم نوافق ذلك الشاعر الاندلسي وحيثيته على وصفهما الماء المترقق بالدرع الذي لو جمد فكيف نقابل قول العمري الذي جعل للانهار شعرا ولعل في الشعر شيئا ولعل في الشعر أشياء أخرى .

والمعروف ان الشاعر يعيد خلق الحياة وقد اعاد العمري خلق الحياة فجعل الورد يحيا ويفوح تحت عمام التلج وبرانسه وعجبا لهذا الموسم العمري الذي ينمو فيه الورد ويهطل الثلج ويتكون الندى .

والمعروف عن الشاعر انه عاطفي ، مرفه الحس يتأثر اسرع من غيره ولكن العمري يدعي المرض . فمينه لا تسكب الدمع بل تكسب الصندم وهو ثمر نبات صحراوي كروي الشكل احمر اللون ولعله يشير به الى دموع الدم ومن هذا نفهم ان عينه جريحة او مضابة بالرمد .

لا تسلم عما جرى نهر الفرات
من عيون نزحتها العبرات
كم على الكرخ بقلبي حشرات
عندما تظخر ابكى عندهما
يا لايام تقضت بالهمى
ويقول :

طرر الانهار في امشاطها
وانبرت تختال في اقراطها
وغوالي الورد في اسفاطها
بعدهما الثلج لها قد عمما
والندى خد الروابي غنما

وهرجوا في الرثاء ، فمن يقرأ مراثي آل البيت عند السيد حيدر الحلي وهو مشهور بهذا النمط الشعري لا يرى فيها الا تهريجا . فصياح يتبعه صياح واستفانة تلو استفانة وشتائم لهذا الخليفة او ذاك القائد . وحسبك ان تراجع قصيدته المبدوءة بقوله : كم ذا تطارح في منى ورفاءها وقصيدته الاخرى التي يقول فيها : اعد نظرا نحو الخلافة ايما . . أحق ..

ونود الاستشهاد بمروية من شعر عبد الغفار الاخرس وفيها يذكر ان البيت كان ظلا على الاسلام ، وانه وحده له الهدى ولغيره التقليد وانه طود زال بعد ثباته ولعله تجاهل انه بشر حان حين وفاته ولو كان طودا لما زال الا بقنابل ذرية او صاروخ روسيا الجبار .

ويستبعد ان يرفع للمدارس بعده علم ، ويورق للمكارم عود وليتته نفص غبار السنين ليرى ان العراق رغم انف الشاعر تقدم فيه التعليم وماتت الكتابيب التي علمته هذا التهريج وحلت محلها مدارس مهنيصة وكليات جامعية واصبحت الدراسة اكااديمية بعد ان كانت ملائيه . وان

كرام العراق لم ينقرضوا فلكل عصر كرامه ومكارمه .

ثم يابى الا ان يتجاهل ان جراح الارض تسع كل فرد ويابى الا ان يغالط في احادته فالذي مات ليس العلم بل الجسد

الله يعلم والانام شهود
كان الامام به الائمة تقتدي
ظلا على الاسلام كان وجوده
فلفقده في كل قلب لوعة
فزال ذاك الطود بعد ثباته
هيئات يرفع للمدارس بعده
عجبا لمن فساق الفضاء بعلمه

ونستطيع ان نحلل اكثر ابواب شعرهم على هذا النحو ، ولكننا نكتفي بهذه الامثلة ، ونود بعدها ان تعرض افكارنا وملاحظتنا التي عنت لنا ونحن نقرأ تلك الكتب الصفراء التي تحتاج الى اعادة الطبع وتجديد العرض .

لاحظنا ان المديح متشابهة في جميع الاحوال يقصد به توفير المثل العليا عند المدوح مع انعدام المدح الذي يستمد قوته من الخدمة الاجتماعية التي اسداها المدوح وسعيه من اجل الشعب .

ويخيل الي انهماذ يمدحون انما يقرأون كتبنا اخلاقية ثم يعودون فينظمون فصولها شعرا مع استبعاد الملامح الفردية المميزة واطهار المدوح فكرة تجريدية من البطولة والعظمة .

ومن صفات المدوح التي تتكرر في كل قصيدة تقريبا الكرم والعلاء والنبيل والفضل والعلم بل ان اكثرهم من نسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك فمن يقرأ مدحهم يشعر انهم لا يتحدثون عن بشر بل عن انصاف آلهة وهذا ما يعيد شعرهم عن الواقعية والبساطة ويجعله خاليا من الحيوية .

وقد استطاع السيد حيدر الحلي ان ينظم مدائح لم يدفعه الى نظمها احساس ولكنه طلب من صديق . ومن العجيب ان هذه القصائد تحوي نفس المشاعر والافكار التي نظمها يدافع من نفسه .

وانني لا افهم من توجيههم الخطاب الى المدوح وتعداد مآثره امام الشخص المعني بالذات الا معنى واحدا هو تجاهل الشاعر ان هذه هي مآثر المدوح وصفاته فلا داعي لتذكيره بها بل يجب ان يسردها امام اعدائه .

وتجمدت قصائد المدح على صورة واحدة فكل منها تحتوي على ذكر طيبة النسب ، وتعداد الاخلاق الفاضلة ، وترجمة الحياة ، ودم الخصوم ، وبيان المؤلفات ان وجدت مؤلفات وتطرق الى الاخوان والاقارب .

اما عن الرثاء ، فبالرغم من كثرة الاموات وتعدد المراثي لا نعثر على صورة يتيم او امرأة ارملة او فتاة ضائعة في معتزك الحياة او بيت يتهدم وحريق يشب وفيضان يكتسح حياة الامنين

وبالرغم من كثرة المراثي لا نجد ذكرا لمراسيم الدفن والتشييع والفاخرة ولا تصويرا حيا يبين نمو الحزن وانما المراثيه كما قيل مديح للميت لا غير . وخالف الحبوبى اخوانه بتوجيه الخطاب للميت بدلا من التحدث عنه بلفظ الغائب .

واقرا رثاء العمري لآل البيت فلا اجد الا تاريخا جغريا منظوما خاليا من العاطفة النبيلة والتصوير المبدع ويبدو انهم شعراء طائفية لا شعراء

متفنون .

ورغم كثرة مرثي السيد حيدر فانه لم يع شيئا من جوهر الماضي
وسر التاريخ ، فقد كان يمدح الحسين لقربانه واخلاقه الشخصية ، اما
حبه للعدل ومحاربه الظلم فشيء لا نثر عليه بسهولة .

وانت تشمر بعثت الشاعر في انتاجه لانه ينشد وينشد ولكن بلا
غاية فهو لا يريد الاقتداء بالحسين ولا يريد السعي من اجل المصلحة
العامة ولا يريد انعاش الدين ولا يريد استرداد البلدان المضاعة ولا
اقامته العدالة الاجتماعية وانما يريد ن يدرك النار من آل اميه .. اتراه
لا يعلم انهم في بطون التراب ..

ولا اغالي ان قلت لم اعثر على صورة شعرية متكاملة للحسين الذي
الهمهم المرثي بل اشارات وافكار يتساوي فيها مع اي ممدوح من
ممدوحهم ما عدا فارق النسب الذي يكثر ترداده التاريخي وانهم كما
قال المرثي ارادوا مدح شيء فشغلوا بدم شيء آخر ..

وفي مجال الشعر الوصفي ، لا نجد وصفا - في اشعار هذه المدرسة -
للذلاء والمبيد وتصويرا لآسيهم الى جانب كثرة الممدوحين من النبلاء
والمشايخ ورجال الحكم والاثرياء .

ولو فتشت جميع اشعارهم لم تجد عنصر الشعر الطبيعي متميزا بل تجد
هنا وهناك وصفا متكلفا لناقة او حمامة او ربيع وكلها في طريق المرأة
والكاس والممدوح .

ونستطيع القول ان ابواب الفن الشعري كانت المديح والثناء ،
والنسيب والمراسلات ، والتواريخ والوشحات ، والتشطير والتخميس .
وكثيرا ما عالجوا موضوعات شعرية بروح غير شعرية .

ولو فتشت دواوين هؤلاء الشعراء لم تعثر على ما يسمى بالشعر الوطني
او الشعر العلمي او الشعر الفلسفي بالمعنى الصحيح .
ولا يمكن للقاريء ان يقدر هذه المدرسة ويعطيها ما حلت به من المجد
الا بنسبائه تاريخ التعابير والالفاظ وايمانه ان ما قالوه لا علاقة له بالامس
وانه مجرد توارد خواطر بريء .

وان دل التخميس والتشطير على شيء فعلي انعدام الملامح الذاتية
والشخصية التميزية بل على انعدام التجارب لحية والهروب من الواقع
المعاشة الى لتلهية بمطالعة التحف القديمة والتعليق عليها .

واقرا ما نظمه هؤلاء في اوائل عهد الشباب وما نظموه في عهد
الشيخوخة فيروعي التشابه التام وعدم الاختلافات كأنما هذا البعد
الزمني لم يصرف في التجارب ودراسة الحياة الانسان وكان الشاعر
خرج او قارب الخروج من الدنيا وهو لم يستفد شيئا من حياته .

والمعروف عن هؤلاء الشعراء كثرة مطالعاتهم واعتكافهم في صوامع العلم
ولكن هذا العلم لم يكن ثقافة استطاعت ان تتفاعل مع الواقع والحياة
اليومية الجارية .

واخيرا فنحن نلمس في هذه المدرسة روح التواضع فالكل يعترف - في
ديوانه - بانه مقلد وان شعره قاصر عن تليغ ما يريده وبحسه من
المعاني

عسى اللانع يكون خيرا .

- ٣ -

والكفاح هو السمة السائدة في انتاج الرصافي واخوانه الذين عاشوا

سلسلة صراع الحرية

تقدم

المدوان الاديم

تأليف

اندور هيلر

مذكرات بوهيمي

تأليف

لازلو بيكه

لا غنى لكل مواطن مخلص ومفكر واع من الاطلاع عليهما .

من منشورات المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر - بيروت ، ص .ب . ٥٣١٥

الظلمة الرملية

كسّر الإخفاق المصباحا
 وخبأ في العين بريق الإنسان
 وسقطت إلى قاع الظلمة
 للقاع ، القاع من القمه
 وفقدت الرغبة لم انطق كلمة
 وصديقي ما زال يعب ويشرب
 - « أجب ال ... » كلا لا أرغب
 - « حسنا هل .. » أرجوك توقف!
 وفقدت الرغبة لم انطق كلمة

.....
 ما زال المذيع يردد أشياء قديمة
 « يا قبة ليل ففتش أديمه
 ونظيل الآهة بعد الآهة ترنيه »
 أشياء - يا أخت - قديمه
 تنزلق على جدران سفليه
 حتى الأعماق السفليه
 في الاسفل - يا وحي - وقع الكلمة
 إنسانان ..

نطقاً نفّس الكلمات الرملية
 وتشابكت الأيدي ، ثم افترقا وبدون وداع
 عامين وها سكنت رعشات الكفين
 وتكككت الأحرف لم تبقى - كلمات رملية

.....
 وحدي احتضن السأم وما ضاعا !
 وحدي - احتضن نداءات الباعه
 وحدي انتظر - على بأس - حتى الساعة

.....
 عودي .. عودي .. يبس الأخضر
 كسّر الإخفاق المصباحا
 وسقطت إلى قاع الظلمة
 للقاع .. القاع من القمه
 وفقدت الرغبة - لم انطق كلمة .. !

عبد العزيز صفوت

الحرطوم

في فترة ما بين الحربين .
 ونعني بالكفاح وجود الحركة الصراعية في القصيدة ، والحماسية
 العسكرية في معالجة الموضوع ، وكثرة الالفاظ السياسية ، وازدحام الصور
 المكتسبة من مجالات النضال ، ترافقها موسيقى يقصد من ورائها ايقاظ
 الكرامة والانسانية الكامنة .

ولا داعي لان ابين سمة الكفاح في شعر السياسة والوطنية والاجتماع
 فهذه بطبيعتها ميادين نضال تتمثل فيها جميع المفاهيم السابقة .
 ولكنني اقرأ رثاء الجواهري لآخيه ، وعدنان المالكي فلا اجد في هذه
 القصائد الا ثورة عنيفة وجهادا شاقا .

وحسبك ان تقرأ مقطعا من قصيدة عبد الحميد كرامي .
 في هذا المقطع كل الحجج التي تدخرها المعارضة صرخة اثر صرخة ،
 وحجم بعدها حم تقذف بوجه الاستعمار واذنابه بالفاظ قوية جدا ،
 واسلوب رصين جدا ، وايجاز معجز ، ترافقها حركة صراعية وتحد شديد
 اللهجة .

تنهى وتأمّر ما تشاء عصاة ينهى ويأمر فوفها استعمار
 خويت خزائنها لما عصفت بها الشهوات والاسباط والاصهار
 واستتجدت دم الشعوب ضمانها ورفاهها فامدها الدولار
 يلوي به عصب البلاد وتشتري ذمم الرجال ، وتحجز الافكار
 عرفوا مصائرهم اذا جلى غد في المشرقين ولاحت الانوار
 واذا استوى اجل فزعز طاريء عات ، وقر من الشعوب قرار

واقرا ترحيب الرصافي بالريحاني وما اكثر ترحيباته به فاجده يحول
 موقف الترحيب الى موقف شكوى مرة تصور كفاح الرصافي في الحياة .
 فيها صراع بين الرصافي والجماهير ، هو يمر فتنظره الابصار شزرا .
 وصراع بين الرصافي والفاقه : سكن في الخان كأنه رجل غريب .
 وصراع بين الرصافي كاديب وقيم المجتمع السائدة : اذ آله احتقار
 الاديب وتقديم الشرير .

كل هذه الصراعات تقدم في وزن ذي حركة سريعة ، وفافية قوية :

أفمت ببلدة ملئت حقودا علي فكل ما فيها مريب
 امر فتنظر الابصار شزرا الي كأنما قدمر ذيب
 وكم من اوجه تبدي ابتساما وفي طي ابتسامتها قطوب
 سكنت الخان في بلدي .. كاني اخو سفر تغاذفه الدرود
 وعشت معيشة الفرباء فيه لاني اليوم في وطني غريب
 وما هذا وان آذى بدائي ولا هو امره امر عصيب
 ولكنني أرى ابناء .. قومي يدبر أمرهم ممن لا يصيب
 يقدم فيهم الشرير دفعا لشرته ويحتقر الاديب .. الخ

واقرا ابياتا للشبيبي في الشكوى فاجد ان اغلب الفاظها كفاحيه :
 صلح وحرب ، وتجريد السلاح ، وضرب ورمي ومناجزة .

واجد تعابير يكثر استعمالها في ميادين الكفاح : اسئلة هجومية ، ونداء
 تلو نداء ، وقسم وتقدير ، وحساب ودعاية .

وفي الابيات حالة من النضال بين جبهتين: اسئلة هي جبهة الشاعر
 الفني بابائه وطموحه ، والثانية جبهة الدهر المتبختر بقضائه وقدره .

هلم لنصطلح يا دهر حسبني وحسبك لم نزل متشائنين
 ابذل ماء وجهي فيك ؟ كلا ساملكه واملك ماء عيني

- التتمة على الصفحة ٦٩ -

قيارة الوارثي

بقلم عبد الجبار داود البصري

- تنمة المنشور على الصفحة ٢٩ -

شقيقة او محبة لمجتمعهم . كافحوا في هذا المجتمع الساسة الهدامين الذين يسعون الى مصالحهم الذاتية ، وكافحوا الاجانب المستعمرين الذين امتصوا اقوات الشعب وخيرات البلاد ومنافسه .

وكافحوا الانبياء الكذابين الذين استغلوا سداجة الشعب وكافحوا ضد الرذيلة في سبيل الفضيلة والمثل العليا .

وكافحوا الامراض الاجتماعية : فحاربوا الفقر ودعوا الى انصاف الفقراء ، وحاربوا الجهل ودعوا الى فتح المدارس وتعليم الرجل والمرأة في المدينة والريف ، وحاربوا السقم ودعوا الى انشاء المستوصفات والمستشفيات والعناية بالصحة العامة .

وخلاصة القول انهم كافحوا في كل ميدان من ميادين الحياة حتى في انفسهم ، كافحوا الجبن والخضوع واللذع وعاشوا اياة مجاهدين في سبيل الحق والخير والجمال .

ولكنهم مع الاسف لم يستطيعوا مكافحة الشعور بالالم فقد احسوا به وتظلوا واشتكوا منه حتى ملا الابن كثيرا من اشعارهم . اما عن الاسلوب الشعري :

فقد تفلت عليهم النزعة الفكرية ونستطيع ان نلمح ذلك من عناوين القصائد مثل : خواطر فلسفية ، نظرة في الحياة ، الايام ، تنازع البقاء اما عند الزهاوي فقد عنون القصائد العلمية بمصطلحات اكااديمية .

واستفادوا كثيرا من علم المنطق في طريقة النظم ، وبذلك جعلوا القصيدة مجموعة نظريات مبرهنة لا تجربة نامية في موسيقى منمسة .

وحاولوا التجديد واول مظاهره استعمال الالفاظ المصرية واخص بالذكر اسماء المخترعات كما استطاعوا ان يعيدوا صياغة بعض الابيات الشعرية القديمة بأسلوب اكثر تلاؤما وانسجاما مع النون الحديث وتأثروا بالصحافة الى مدى بعيد ، وجميع ما ذكره الدكتور عبد اللطيف حمزة بشأن الشعر الصحافي ينطبق عليهم .

والملاحظ انهم تخيروا من القوافي ما تصلح لاحتواء اسم صاحب المناسبة كاختيار قافية السين في قصيدة توجه الى سركيس ، واختيار قافية الفين في قصيدة توجه الى جريدة البلاغ ، واختيار قافية الواو في قصيدة يحيى بها الزهاوي وهذا ما فعله الرصافي .

وكم افلتت من السنة هؤلاء الشعراء كلمات لا ينبغي ان تفلت كقول الجواهري لاحدى النساء : « عيني فدي قديمك سيدتي » وقول الرصافي لنندره مطران : « اقبل من الصبد جميل الثنا . »

ولم تمدح هذه المدرسة الافراد باعتبارهم انصاف الهمة ولكن باعتبارهم اخوة واصدقاء كفاح وعلى اساس خدمتهم المجتمع والسعي من اجل الشعب.

اذا اداينت من زمني هناء تمجلتني الزمان وفاء ديني لامر لم جردني سلاحي وقلده كيلل المهربين بيينا انها ظبة ... رمتها بين مناجز ليمين قنين واقرا قصائد الجواهري في المديح فلا اجد فيها الا صورا من الكفاح والسياسة كمديحه لبلاسم الياسين والدكتور هاشم الوتري وقصيدته في يوم التتويج .

ولعل القاري يجد ان زمن ما نستشهد به من شعر الجواهري لا يقع بين الحربين ولكن لا صبر ، فالجواهري من ابرز الرجال المكافحين وهو ما زال يمثل مدرسته خارج زمنها كانه جزيرة في بحر المدرسة الجديدة الحرة . والمدارس الادبية كالدول لها مجالها الحيوي ويجب ان تدرس في كل شبر وساعة من هذا المجال .

وبفض النظر عن القيم الفنية يمكن ان نستعرض شعرا علميا للزهاوي فنجد الروح الكفاحية تفلتت في البحث العلمي وصيغته بالوانها . فالزهاوي يتحدث عن النجوم السيارة ولكنه يختار صورة عسكرية كانها الخيل في البيداء . ويختار صورة اخرى لتشبيه الاثر مقتطفة من الافق الحكومي فهو كالديكتاتور الطاغية القاهر الذي يدرج بمصاه الاكر . ويتبين القاري حين نعرضها كثرة الالفاظ الحماسية واختيار الوزن الذي لم يختاره الا القليل للتعبير عن النظريات العلمية اذ ان المعروف كثرة تداول الرجز في المنظومات العلمية كالقافية ابن مالك لقربانه من النثر .

تحوي السماء نجوما ذات انظمة من الشموس كشارا ليس تتحصر تخالها ثابتات وهي مسرعة كانها الخيل في بيضاء تتحضر وكل شمس لها جرم بنسبته يجري الاثر اليها فهي تستمر وهو الذي يوسع الاجسام قاطبة دفعا عليها به الاجسام تنهم وللأثر يد في الكون قاهرة تدرجت بمصاهها هذه الاكر الجرم يأخذ منه بعض حاجته وللذي زاد عن حاجاته يسر وعند ذلك يجري في جواهره كالماء قد صادفته جاريا حفر .. الخ

واذا وجدنا في قواعد النقد الادبي لابر كرومبي ، وموجز فلسفة الفن لبنتونكروتشه وغيرهما من كتب النقد مفاهيم فنية توصل اليها المفكرون بعد تحقيق واستنتاج ودراسات علمية ، وحاولوا ان يكتبوا وهم تحت تأثير عقلي بحث ، فان هذه المدرسة لم تقدم لنا مفاهيمها الفنية الا وهي منظومة على هيئة الشعر واكثرها ارتجالية ابنة لحظة .

ومن الامكان القول ان جميع الابواب الشعرية عند هذه المدرسة تصطبغ بصيغة الكفاح حتى في ابعده القصائد عن الكفاح واعنى بها فلسفة الفن وشعر الطبيعة .

وكان مجال الكفاح ، المجتمع الذي يحيون فيه وما جاوره من افطار

وظرفوا أحيانا أبواب مدح مما لا يسمح للشاعر الحديث ، ولكنهم كانوا يحورونها تحويرا جيدا حتى لنمدها من قصائد الكفاح بالدرجة الأولى . والملاحظ ان في ديوان الرصافي سفاسف، فهو يحتاج الى تنقية ، ويطلب للمرء ان يتساءل وهو يقرأه عن التناقض الموجود فيه . فبينما يندد بالسلطة وهم في دست الحكم نجده يرثيهم واحدا واحدا على شواطيء القبر .

والملاحظ ان الرصافي يمثل المدرسة اصدق تمثيل، فالنظم العلمي موجود لديه بصورة قليلة ولكنه تضخم في شعر الزهاوي.

والشعر السياسي موجود لديه بكمية كبيرة ، ولكنه استحوذ على اغلب شعر الجواهري .

ووصف الرصافي شيئا من وقائع الحياة اليومية مثل الشارع في بغداد ، وعلى الخوان. وجاء الصافي النجفي فافط فيه وتحول الى امواج ، وتيار ، ولهب .

اما الزهاوي ، فاسرف في المنظومات العلمية حتى اشرفت ان تكتسح شهرته وتمحو محاسنه عند كثير من الشباب المتأدب، وكثر الحديث عن هذه الناحية حتى عند اكابر النقاد ودعمهم هذه الظاهرة الى تجاهل ابواب شعره الاخرى . والحق ان هذا الاسراف عوده على نثرية النظم وتفكك الموسيقى ، وانعدام العاطفة كما علق شعره باذيال العلم واللم كل يوم هو في شان .

ومن الظواهر المعجزة في هذه المدرسة الشعر الارتجالي ، وامناز به عبد المحسن الكاظمي ، ولعل دراسة الارتجالية في الشعر تهدينا الى نتائج لا تعود على صاحبها من الناحية الفنية بالخير العميم .

ويمناز شعر الصافي ببساطة الموضوع، وسوقيته، وبالمفاجأة الفكرية، والنكتة والفكاهة ، والنثرية في النظم.

والصافي يمثل تطورا لعدة ابواب وجدت عند افراد هذه المدرسة كباب الشعر الفكاهي ، وباب المقطعات القصيرة كاشعة ملونة وهواجس، واشتهر بترجمة رباعيات الخيام.

ويبدو بصورة عامة ان هذه المدرسة وعت كثيرا من حقائق الماضي ولاسيما جوهر الدين الاسلامي ولذلك طالبوا بتحرير المرأة واستقلال العرب ووحدة الشعوب الاسلامية وتخليص الدين من الشعوذة والخرافة.

وامنازوا بحب الطبيعة باعتبارها وجه الوطن الضاحك ، وماوهم ، وارض الجدود ، ارض المعركة .

وكان لكل فرد من هذه المدرسة فلسفته الخاصة يواجه بها الحياة فالزهاوي نظر للحياة نظرة علمية ، والرصافي نظرة سياسية ، والكاظمي نظرة قومية جنسية Race والجواهري نظرة اشتراكية وغلب على جميع هذه النظرات طابع الكفاح .

ووجدت نواحي تقليدية لديهم ولكنه تقليد واع ويقلد الجوهر قبل ان يقلد القشور كما قد تجد شوائب تهريجية لا يمتد بها .

وشاركت هذه المدرسة في الحياة الاجتماعية وامناز اكثر شعرائها يتفقد ابناء الشعب فالرصافي يتفقد الاملة المرصعة واليتيم في العيد وسواهما والجواهري يتفقد اللاجئين في العيد والجنود العائدين من فلسطين.

وكان الكفاح عند هؤلاء يتخذ احيانا صورا اخرى كالخديعة والاغراء والهزل والسخرية والياس.

وقادتهم فلسفتهم في الموت وماوراء الحياة الى شيء من الازورار عن الدين وجنى عليهم هذا الازورار فحورب الزهاوي محاربة عنيفة واضطر

الرصافي في وصيته الى تأكيد اسلاميته ليبروه ساحته .

ووقفوا من الحضارة مولفا يحمد لهم اذ رحبوا بكل ثمارها وامتدحوها كما رحبوا بمبادئها وافكارها وامتدحوا حملتها دون ان يجدوا في ذلك ما يناقض وطنيتهم او قوميتهم او ما يخدش عظمة تراثهم .

ومن ابواب الشعر عند هذه المدرسة العلمية والاجتماعيات والفلسفيات والوصفيات ، والحريقيات والمراتي والنسائيات والتاريخيات والسياسيات والمقطعات ..

واعترفت هذه المدرسة بانتاجها ودافعت عنه دفاعا حارا نثرا وشعرا الى حد السأم كما في دواوين الزهاوي.

اننا نجحي في هذه المدرسة كفاحها وننثر الورد على قبور من قضى نحبه منهم ونبلغ الاحياء اكبارنا وتقديرنا .

- { -

اما السمة الغالبة على انتاج شعراء اليوم الشباب فهو الانطلاق ، ويبدو في كل موضوع تناولوه فعبروا عنه.

والانطلاق الذي اقصدته : تحرر من قيود الوزن والقافية ، وتحرر من القيود السياسية والفكرية ، وعمق في التحليل والتفسير والتأمل، والجدة والابتكار في التعبير والخيال وانتقاء اللفظة .

اما الثورة على المفاهيم الكلاسيكية او التحرر من قيود الوزن والقافية فتبدو في سيادة الشعر الحر Free Verse الذي يعتمد على تفعيلة واحدة تكرر بدون انتظام واستبدال القافية الموحدة بالمزدوجة او المثلثة او المشوائية مثلا . ومن السهولة ان نجد دواوين كلها من الشعر الحر .

وفي قصيدة لنازك الملائكة عنوانها - لكن اصدقاء - تنطلق من قيود الوزن والريث والقافية المألوفة ، فتارة تأتي بتفعيلتين وتارة بثلاث واربع حسبما يحكم التعبير .

وفي القصيدة انطلاق من الذاتية المنطوية على نفسها وشوق الى مشاركة الاخرين في حياتهم ، وانطلاق من حدود الوطن والجنس الى مساحة اكبر هي الانسانية العالمية ، فلا تصادق العرب وحدهم ، ولكنها تطلب صداقة الاسكيمو في بحار الثلوج وصداقة الزنوج في الغابات الاستوائية وصداقة كل انسان في كل مكان .

وفي المقاطع التالية جماع ما قدمناه :

لكن اصدقاء

نحن والظالمون

نحن والعزل المتعبون

والذين يقال لهم : مجرمون

نحن والاسرى

نحن والامم الاخرى

في بحار الثلوج

في بلاد الزنوج

في الصحاري، وفي كل ارض تضم البشر

كل ارض اصاحت لآلامنا

كل ارض تلقت توابيت آلامنا

ووعت صرخات الضجر

من ضحايا القدر.

واقرا شعرا لبلند الحيدري تحت عنوان « نجوى » فاجد فيها انطلاقات

مدينة لا تمت الى التهريج او الكفاح بصلة ، مع ان القصيدة حافظت على وحدة البحر والقافية . انطلق الحيدري من المعاني الغرامية البتلة ، فلم يقل ابكائي الفراق، وهزل جسمي، وشحب لونني، وطال ليالي، ولكنه قال « لا تسالي القلب عن تاريخ اغنية رضاء جفت على قيثار ماضيه » .

ولم يقل اكاد اموت شوقا الى رمان الصدر ونفاح الخدود وليل الشعر الفاحم ، وسهام العيون ، ولكنه ابتكر تعبيراً جميلاً رقيقاً صادقاً في رسم حالته النفسية اذ قال لها: - « جئت ابحت في عينيك عن حلم اعيش على نجوى امانيه » .

وفي هذه الابيات يلمس الغاريء ايضا انطلافاً فكرياً فهو يابى ان يرزح بين اغلال الفرام او ان تستعبد تفكيره امرأة تعيش في دنيا مدنسة .

لا تسالي القلب عن تاريخ اغنية رضاء جفت على قيثار ماضيهه لا تسالي القلب بما فيه سوى خشب تكاد تلمسه الذكرى فتوربهه اطلقتها طائراً في قلب عاصفة فما استقرت على شيء اغانيه حتى استفاق على دنيا مدنسة ونبه العار احساس اللظى فيه فراح يحرق بالتفكير ما رسمت انامل الائم في رؤيا دجاجيه وجئت ابحت في عينيك عن حلم هاد اعيش على نجوى امانيهه

ويبدو ان عرف الفن في المجال السياسي لا يمكن ان ينطلق الشاعر من قيوده ، فهو مجبر على تقليد الرصافي والجواهري في حركتهما الوطنية ولكن الشاعر اليوم انطلق حتى في المجالات السياسية.

في قصيدة « رجل في الظلام » لموسى النقيدي ينطلق من التعابير السياسية المعروفة والشائمة والسباب ، ولا يلجأ الى الالفاظ الحربية والطبيعة العسكرية ، ولكنه يصف ببساطة شريداً في الظلام جائساً غارياً يحب الحياة ويصبح اين هم الجناة . انه لم يعبر تعبيراً مباشراً ولكنه اكثر من الايحاءات والاشارة ، واكثر من الكلمات الرقيقة والتعابير الجديدة .

كما انه انطلق من الوزن والقافية ايضا ، وبحث عن طريق الانطلاق من يد الظلم والفقر والتهيه والالم .

والشاعر الذي يحترم واجبه لا يمكنه ان ينطلق من الحياة الاجتماعية فلا يعالج موضوعاتها بل هو يعتبر هذه المعالجة من صلب اعماله .

فالرصافي والزهاوي والجواهري عالجوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية وصوروا كثيراً من وجوه المجتمع ولم يستطع الشاعر اليوم التمرد على ترائه وواجبه ولكنه انطلق في تحليله وتفسيره .

فرؤية الفقير مثلاً يفسرها الرصافي وامثاله تفسيراً اخلاقياً فهو رأى ارملة مسكينة فدعا الى الرافة بها ومساعدتها واجتذب لها من جيب ملحفته دراهم كان يستبقى بقاياها ، ومر باليتيم في العيد فاشفق على حاله ورق له .

اما الشاعر المنطلق فتحذر من التفسير الاخلاقي ، فبدر السياب لا يفسر نعيم - حسناء القصر - عن طريق لاهوتي واخلاقي ولكنه يفسره على ضوء المبادئ العلمية الحديثة كما يبدو الانطلاق التفسيري من دراسة ملحمة « الاسلحة والاطفال » من شعر السياب ايضا حيث يبدع في تحليل حملة شراء الحديد والتحاس العتيق .

ويمثل هذا الاتجاه قصيدة « انا وكوخي والشتاء » من شعر انور خليل، وفيها انطلاق منظم من الوزن والقافية وانطلاق من الموضوعات الارستقراطية

وهبوط الى معالجة المشاكل الشعبية ومشاركة البسطاء في فدوسهم ورواحهم . وفي القصيدة انطلاق في التفكير والتفسير فهو لا يطلب من القوم الرافة والمظف بالفقير ولا اسداء اليد البيضاء المتصدقة ، ولكنه يعالج المسألة علاجاً جذرياً فالاغنياء هم مصوا دماء الفقير وتركوه منبوذاً حرم عليه حتى الصياح .

ولقد انطلق الشعراء الشباب يفتشون عن موضوعات جديدة اضافة الى ما توارثوه . واستنظعوا العثور على كثير كمناجاة المثل العليا ، والتحليل النفسي ، ورسم النماذج البشرية ، ونظم الاخبار الخارجية ا فعل عبد الوهاب البياتي :

اقرا « اباريقه المهشمة » فاجده مراقباً سياسياً يتتبع اخبار الصحف وريبورتاجاتها الخارجية ونشرات الاذاعة ثم يفسس هذه البضاعة في بوتقة قريحته فيضيف اليها شيئاً ويحذف منها شيئاً وينظمها ويؤطرها فتكون قصيدة .

« فاللجأ المشرون » اخبار عن اللاجئين العرب ابتكروا لها اسلوباً رسائلياً اذ اتى برسالة شعبية فنظمها كما هي بقلمها وجرداها ولكنه قطعها ارباً ارباً وحشى الفراغات الموجودة بين القطع باوصاف وتعليقات . هذا بغض النظر عن مصادر الهامها .

واقرا قصائد « فيت مين » و « ماو ماو » و « كوريا فلا اجد فيها الا تعليقات واخباراً خارجية عن معارك الفيتنام مع الاستعمار الفرنسي، ومعارك البشرية السوداء المحترقة مع ذوي الوجوه السلوخة.

اما قصيدته عن كوريا : فلم يزد على ان اختار جندياً من الصين وجندياً من تركيا وجندياً من امريكا وابتكر ترجمة حياة لكل منهم وجمعها في تفعيله مكرورة فكانت قصيدة.

ومن هذه الامثلة نتبين الانطلاق في البحث عن موضوعات جديدة واساليب جديدة وخطط وطرائق جديدة في الشعر ، ولا اجد عيباً فنياً في هذا الانطلاق ، ولكن احتمال العيب يبدو في النماذج التي تمثله . وفيما يلي نستعرض ملاحظتنا : - التي دونها اثناء قراءة الشعر المنطلق .

امتازت هذه المدرسة بالواقعية ، ونعني بها تصوير الحياة بدقة وصدق وتفسيرها تفسيراً علمياً يظهر الصراع والتناقض في كل مظهر من مظاهرها .

واهتمت هذه المدرسة بتوافه الحياة وتجميع الاشياء البسيطة وتدوين الحركات الساذجة لتعطي لقصيدتها جواً مؤثراً كما اكثر من الايحاء والرمز لتعطي لقصيدتها نكهة لذيذة .

وكتت في اشعار المدرسة المنطلقة التحليلات النفسية ، وتصوير الخطرات كما كثرت النماذج البشرية التي تعبر عن افكار مجردة او ترمز لمظاهر اجتماعية طبقية .

واستطاعت المدرسة المنطلقة ان تصور وجوه المجتمع المتعددة . فالبياتي صور الوجه السياسي، والسياب صور الريف العراقي متمثلاً في جيكور ، وحسين مردان صور وجه المجتمع القدر المنس .

ومن السهولة ملاحظة المؤثرات التي اثرت في المدرسة المنطلقة . فالسياب صدى اليوت الى حد ما ، وكاظم جواد تأثر باوركا وناظم حكمت، والبياتي عيب عليه تأثره بناظم حكمت وانور خليل تأثر بشعراء المهجر وتأثرت نازك بادكار الن بو وآخرين .

وأستقلت هذه المدرسة في إنتاج شعرها : الاساطير والقصص الشعبية والتقاليد الجماهيرية ، والتاريخ .

ولم تكن القصائد التاريخية تعبر عن القدم الا بشكلها ولكن محتوياتها جديدة بكل معاني الجدة . وقد ادى هذا الاستقلال الى اشاعة لون من الرمزية الشفافة .

وكان اسلوب احدهم مزيجا من الابيات الشعرية السائرة والامثلة المتداولة يصف فيها اسماء الشعراء وتشكيلة لفظية من احداث الموديلات الشائفة الرائجة حتى لو كانت مسميات لحياء قلرة جدا . ويلاحظ - انهم استعملوا احيانا بحور الشعر العروضية دون محاولة جادة لتصفيتها من الشوائب . كما ان بعض المظاهر التهرجية تفصح عن نفسها هنا وهناك .

وقد عشقت هذه المدرسة الفن بجميع صورته ، وازادت ان تجعل سلوكها فنا ايضا ، ولذلك تنوعت اساليبهم في الحياة . ونستطيع تسميتهم الى فريقين الحيدري والوترى ومردان وآخرون انطلقوا في دروب المرأة ، وانور خليل وعبدان الراوي وعبد الوهاب البياتي والسياب الى حد ما انطلقوا في دروب الشعب والحرية .

اما نازك الملائكة فانطلقت في اكثر شعرها في دروب الوهم والالم .

واستطاعت هذه المدرسة ان تتطلع الى الغد دائما ، حتى ان المستقبلية من الصفات المميزه لها . . انهم شباب متفائلون رغم الهمهم يؤمنون بالغد ويتقنون بالشعب .

وامتازوا بالنظرة الانسانية التي تتخطى الدم والحدود واللسان وعاشوا حياة كلها شعر وحاولوا ان يحولوا كل شيء اتصلوا به الى شعر ، واكثروا من الاعترافات الذاتية الى حد الفضيحة .

ويسرنا ان ندون بعض المقارنات التي تربط المدارس الثلاث :

فكلهم اكبروا الانسان :

اما المهرجون فمظموه ذاتا فردية تتمتع بجاه او ثروة ، وعظمه المكافحون باعتباره ذاتا فردية جاهدت في سبيل الوطن والشعب او مجتمعا يمت الى الشاعر بصلة من القرابة والالفة . اما المدرسة المنطلقة فمظمت الانسان لانه انسان وتفتت جانتصاراته واوشكت ان تهتنق الانسانية باسلوب عقائدي .

وتطلعت المدرسة الاولى الى الماضي فاكبرت كل شيء فيه واستوحت واقتبست كثيرا منه واستمدت ثقافتها من ثقافته . اما المدرسة الثانية فاستوحت الحاضر بالدرجة الاولى . . وان كان الجواهري مؤلف عالم الغد وقالت اشعارها متأثرة بحركات الواقع ومظاهره وان لم تتعمق الى مسافات بعيدة . اما المدرسة الجديدة فاضافة الى استيحاء الماضي والواقع الحاضر استوحت الفدوتفتت بملامحه وحسبك ملحمة السماوي المعروفة .

وطرقت المدارس الثلاث باب الملاحم .

واختلفت الاساليب ، فالعمرى خمس همزية البوصيري بكيفية اشبه بالملاحم الى حد ما ، وعلويات الحيدري ملحمة غير منتظمة .

ووطنيات الرصافي ملحمة غير مقصودة وغير مبوية ، اما ثورة في الجحيم للزهاوي فلمحة توفرت فيها اكثر الشرط الفنية وكذلك عالم الغد للجواهري وتعتبر قصائده ملاحم قصيرة النفس .

وللمدرسة الجديدة عدة ملاحم كلحن مردان الاسود ، والموسم العمياء ، وحفار القبور والاسلحة والاطفال من شعر بدر شاكر السياب .

واذا اخذنا على المدرسة الاولى زيادة على ما ذكرناه نظم التواريخ ، فان المكافحين اكثروا من المنظومات العلمية بشكل معيب واكثرت المدرسة المنطلقة من نظم البرامج الحزبية والتهنئات الشعبية بشكل لا يرضي الذوق الفني .

ويلاحظ ان الحويبي وانصاره حافظوا على التراث الشعري كما تسلموه فلم يضيفوا اليه شيئا ذا خطر ، هذا اذا لم ينقصوا . اما الرصافي وانصاره ففتحوا ابواب دواوينهم للباثسين والفقرء وجاء البياتي ورهطه فادخلوا حتى البغايا الشقر والتسولين .

والتزمت المدارس الثلاث :

الاولى التزمت حيال قيود الفن وابواب الشعر القديمة التزاما لا يفر لها ، والتزمت الثانية تجاه الوطن والمثل العليا التزاما ييسارك لها ، والتزمت الثالثة تجاه الانسانية والشعوب الديمقراطية التزاما واجبا تستحق بسببه التقدير والاكبار .

اما عن اللغة :

كانت لغة الحويبي واصحابه ارسنقراطية منهارة ، وكانت لغة الرصافي واصحابه ارسنقراطية تكيفت للظروف الجديدة وخدمة الاغراض البرجوازية . اما لغة البياتي واصحابه فهي ديمقراطية شمبية حتى قال انه يكتب لبسطاء الناس ، لاؤلك الذين يصنعون الثقافة والتاريخ والورد والخبز والنور .

وانني اعطف على بعض شعراء المدرسة الاولى لما قاسوه وهم يقفون على عتبات المدوحين . اما الشاعر المكافح فيحملنا على ان نعطف على هذا الفرد او تلك المرأة ، ولكن الشاعر المنطلق كان يقصد دائما اثاره عطفا على مجتمع مظلوم وشعب يريد التحرر وتحطيم اغلاله .

والاحظ ان فلسفة المدرسة الاولى - ان صح القول - لاهوتية ، وفلسفة المدرسة الثانية سياسية اجتماعية ، وفلسفة المدرسة الثالثة فنية تحاول ان تتلوق الحياة .

ولو نظرنا الى خارطة كل مدرسة نظرة مقارنة لوجدنا ان اكبرها رقعة المنطلقة ، واصغرها رقعة المكافحة ، ونعلل هذه الظاهرة بصغر رقعة الكفاح واقتصاره على العاصمة ووعورة الطريق ، بينما الانطسلاق يستحوذ على اكبر رقعة ويمند الى مسافات بعيدة بحكم طبيعته .

واذا كانت المدرسة الاولى مدحت ، ورثت مخلوقات بشرية كثيرة ، فان المدرسة الثانية وصفت ودافعت عن مخلوقات بشرية كثيرة . اما المدرسة الثالثة فاستطاعت ان تخلق نماذج بشرية كثيرة .

واخيرا ...

ان جلال المدوحين وسمو مكانتهم الدينية والاجتماعية يعوق النقد فلا يقول قولته الصريحة في المدرسة الاولى ، وجمال الهدف وسمو الغاية والخوف من تهمة الخيانة يعوق النقد فلا يقول قولته الصريحة في المدرسة الثانية ، وحدائة المدرسة المنطلقة وجدتها تتطلب من النقد ان يترتب باحكامه الى ان تنضح مفاهيمها وانمارها .

عبد الجبار داود البصري

العراق - البصرة